وظيفة الفن والصحافة فى بناء المجتمع وتوجيهه

بقلم الأستاذ سيد قطب

لا أستطيع أن أسلم لحظة واحدة بقص أجنحة الفن الجميلة التى يسمو بها عن الواقع المحدود حين يريد ، ويحلق بها بعيدا عن قيود الضرورة وعن الصراع الأرضى المضنى فى سبيل لقمة العيش وضروريات الحياة .

وفى اعتقادى أن هذا يتنافى من أساسه مع وظيفة الفن ومبعثه الأصيل فى النفس الإنسانية . فهذه النفس أكبر من ضرورات العيش اليومية ، ومطالبها لاتنتهى عند لقمة الخبز ، بل تبتدئ من هذه النهاية . وهى لاتبذل لضرورات العيش إلا الجهد الذى تحصل به على هذه الضرورات فاذا ادركتها سارعت إلى تلبية الأشواق العلوية فيها . أى سارعت إلى الفن تحاول أن تجد عنده مالا تجده فى هذا العالم الأرضى المحدود . فاذا شغل الفن نفسه بمطالب العيش كذلك لم تجد هذه النفس مهربا من حيز العيش الضيق ، وبطلت وظيفة الفن من أساسها كما نقول .

ولقد ضاقت فسحة الأرض عن أشواق النفس الانسانية حتى فى إبان طفولتها ، فتطلعت إلى الدين ليهبها عالما آخر أفسح من عالم الأرض المحدود أو لتجد فيه على الأقل قوة أخرى أكبر من القوى الأرضية الصغيرة ، وتطلعت إلى الفن ليهبها عالما آخر أجمل من عالم الواقع ، أو لترى فيه على الأقل جمالا أحلى من المشاهد اليومية المألوفة . ولو كانت لقمة الخبز والصراع عليها تستغرق طاقة النفس الإنسانية كلها لكانت خليقة أن تستغرقها وهى فى طور السذاجة البدائية ، وقبل أن تطوع قوى الطبيعة المادية لخدمتها وراحتها كما هو الحال الآن .

وكل دعوة إلى قص أجنحة الفن الجميلة ، وحصره فى دائرة الصراع الأرضى ، وفى مطالب العيش ونضال الطبقات ... إنما تصدر عن ضيق فى النفس وارتكاس إلى الطور الحيوانى فى حياة الإنسان ، قبل أن تنبض فى نفسه الحاسة الذهنية ، التى تنزع به حتما إلى التحليق فوق الواقع ، والانفلات من ضرورات العيش وأثقال المادة .

ولن يغفل حساب الأشواق المجهولة فى النفس الإنسانية ، وحساب التطلع إلى المثل العليا ، إلا انسان فرغت نفسه من النوازع الإنسانية ، واستغرقه الجانب الحيوانى فى حسه إلى أقصى الحدود . فاذا لم نغفل هذا التطلع وتلك الأشواق لم يكن بد من أن نطلق الحرية للفن ، ليزتاد بنا عوالم أخرى أجمل من عالمنا المحدود ، أو على الأقل ليعمق ويوسع جوانب هذا العالم المشهود ويكشف عما فيه من محاسن ومفاتن ، ويروح عن نفوسنا من صراع العيش ونضال الطبقات .

أما تثقيف الجمهور والفحص عن مشاكله ، وتوجيهه التوجيه المباشر فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، وسائر ضرورات الحياة ، فوظيفة أخرى واجبة تنهض بها المدرسة وتنهض بها الصحافة ، وينهض بها رجال السياسة والاجتماع بالخطابة والكتابة وجميع الوسائل الأخرى . حتى إذا شبعت النفوس من هذه المادة الأرضية ، وأحست بالرغبة فى إشباع الجانب العلوى فيها ، وفى إرواء حاسة الجمال والطلاقة تلفتت حينئذ الى الفن فوجدت عنده شيئا آخر غير هذا "الوحل" الأرضى ، أجمل وأعلى وأخلد ، من كل ما كانت فيه؟

تختلف وظيفة الصحافة إذا عن وظيفة الفن بالقياس إلى المجتمع . ولكنى لا أحب أن يفهم الناس من هذا أن الفن شيء كمالى أو لا وظيفة له فى الحياة .

فالفن ليس أمرا كماليا لأنه ضرورة نفسية تعادل الضرورة الجسدية ، فاذا اقتضى الجسد وإشعاعاته الذهنية مطالب وضرورات لا بد منها لدوام الحياة ، فإن الروح تقتضى كذلك مطالب وضرورات لا بد منها لرقى الحياة . هذه المطالب والضرورات النفسية هى وظيفة الفن كما هى — فى وضع آخر — من وظيفة الدين . لا بل إن الدين ليأخذ نفسه بتنظيم المجتمع بجانب ما يهبه للروح الانسانية من العقيدة العلوية ، أما الفن فليس مطالبا بهذا التنظيم ، لأنه لا يأخذ نفسه إلا بتزويد الروح الانسانية بالعقيدة الفنية أو باللذة الوجدانية ، وهذه اللذة الفنية ليست شيئا كماليا كما قلت إنما هى ضرورة انسانية كضرورة الطعام والشراب ، ولن يستغنى عنها إلا الكائن الحيوانى الذى لا فسحة فى حسه لغير الطعام والشراب !

وللفن وظيفة أساسية هى ترقية الحياة . فهو أبدا إما أن يبرز لنا أجمل ما فى هذه الحياة وإما أن يرفرف الى عوالم أخرى أجمل من العالم المحسوس ، وهو فى أثناء ذلك يرهف الحس ويشوق النفس الى هذا الجمال المكنون أو المتخيل فيبرز الهوة التى تفصل بين الواقع الناقص المشوه الذى نعيش فيه وبين الصورة الجميلة التى يبرزها أو يخلقها ، فتتطلع النفوس اليها ، وتبذل الجهد والمال والحياة فى بعض الأحيان لتحقيقها . وهذا ما نعنيه بترقية الحياة ، التى لم تكن لتتحقق اولا الحاسة الفنية التى تتطلع دائما الى الأسمى والأجمل والأخلد .

وليس هذا كلاما يقال . انما هو قول ضرورى لتعليل كل تضحية يبذلها فرد فى سبيل مثل أعلى من أى نوع وفى أى اتجاه . هذه التضحية التى تتناول الجهد أو المال أو الحياة نفسها ، لتحقيق هدف أكبر من ضرورات العيش بل أكبر من الحياة .

* * *

للفن وظيفة اذن يؤديها أرفع من وظيفة الصحافة والخطابة والسياسة ، وأرفع من الإصلاح الاجتماعى المحدود ، ولكن هذه الوظيفة لا تتنافر مع الاصلاح الاجتماعى ، بل هى تؤيده وتدعو اليه ؛ ولكن من طريق غير مباشر ، طريق الحرية التى تطلب ما هو أكبر من الواقع وما هو أجمل من الواقع ، وطريق ارهاف الحس للسخط على النقص والقبح والنشاز وطلب الكمال والجمال والانسجام .

فالفنان رسول اصلاح اجتماعى ، ولكنه ليس داعية اجتماعيا ، أو على الأقل لا يجوز أن نكلفه مهمة الدعوة المباشرة لأنه بوسائله الخاصة يترك أثرا أعمق وأخلد من أثر الداعى المباشر ، فإن ميدان عمله هو جوهر النفس الإنسانية ، وماهية عمله هى اعداد هذه النفس لتقبل دعوة الخير والجمال ، والسخط على القبح والنقص ، فى كل صورة وكل وضع ، فى ميدان الاجتماع أو الاقتصاد أو الأخلاق .

ولكن بعض الفن يتجه فعلا الى الاشتغال بالواقع ، فيغمر نفسه فى صراع الطبقات ، أو يعنى بالتوجيه الخلقى أو الاجتماعى المباشر ، أو يتجه الى العكس فيلبى الغرائز وضرورات الجسد ، أو يتخذ وسائل العلم فى التحليل والتعليل . وأنا لا أتردد فى الحكم على هذا اللون من الفنون بالانحراف عن جادة الفن وبالهبوط عن مستواه الرفيع ، مهما بلغ من الدقة والجودة . فسبيل الفن أن يدعونا دائما الى ما هو أكبر من الواقع وأجمل من المحسوس ، والانسانية تقضى معظم وقتها فى صراع العيش وضرورات الغريزة حتى تمل هذه وذاك ، فما قيمة فن يردها بعد ذلك الى مثل ما كانت فيه ، بحجة أن ما يصوره " واقعى " ؟ إن كونه واقعيا بهذا المعنى المحدود هو الداعى لأن تتجافاه الفنون . فالمثل العليا والرغبات المكنونة هى الأخرى "واقعية " بالقياس الى النفس الانسانية ، ذات القوتين الكبيرتين : قوة الحرص على دوام الحياة ، وقوة الحرص على رقى الحياة .

" الواقعية " إذن لا تصلح حجة لشغل الفن بالأمور المحدودة والضرورات الملحة ، لأن هناك ضرورات روحية واقعية كذلك تتطلب الطلاقة من كل هذه القيود . ولكن لا يفهم أحد من هذا أن الفن إذن هو " التحريف " أو " التجديف " فحدود الفن هى الجمال والجمال لا يكون مع الفوضى أو الانحلال .

ونصل بهذا إلى نقطة أخرى فى الموضوع هى صلة الفن والصحافة بالجمهور ، وكيف تكون ليتحقق نجاحها فى أداء وظيفتها .

بعض المشتغلين بالفن وبالصحافة فى مصر ينظرون إلى الرواج كأنه غاية النجاح المطلوب ، وتلك نظرة تجار مستربحين ، لا نظرة فنانين ولا صحفيين . والرواج مع هذا — ليس عيبا ولا مذموما ، ولكن يجب أن ينظر فى الحكم عليه — إلى السبب والوسيلة .

ففى كل نفس إنسانية — مهما انحطت — خيطان متجاذبان : الخيط الأول هو تلبية الرغبات الغريزية والضرورات الوقتية ، والخيط الثانى هو تلبية الرغبات العلوية والضرورات الخالدة ، وبتعبير آخر خيط الهبوط وخيط الصعود . وفى كل نفس استعداد كامن للأمرين على السواء .

وطبيعى أن تلبية الغريزة ألذ وأسهل من تلبية الروح ، والجهد الذى يبذل لاستمالة إنسان ما إلى طريق الانحدار أيسر بكثير من الجهد الذى يبذل فى استمالته إلى طريق التسامى

ولكن شرف الفن وكرامة الصحافة يجب أن يتجها الى الطريق الأخير ؛ وحينئذ يكون الرواج فضيلة ؛ كما يكون دليلا على المهارة الفنية أو الصحفية .

فلننظر إلى الفن الرائج والى الصحافة الرائجة لنرى أى الطريقين يسلكان فى هذا الجيل؟

من المؤلم أن نقرر أن معظم الفن ومعظم الصحافة يتمسك بخيط الهبوط لا بخيط الصعود. ففن الغناء بلا استثناء فى هذا الجيل ، وشيء من التصوير ، وبعض من الشعر والكتابة ، وغالبية الأفلام السينمائية ومعظم المجلات الأسبوعية ... كل هؤلاء يتخذ إرضاء الغرائز الحيوانية سبيله الى الرواج والنجاح .

هذه المطربة التى تئن وتتهالك ، وهذا المطرب الذى يتكسر ويتخلع ، وهذا المصور الذى يبرز مطارح الغريزة بلا ضرورة ، وهذا الكاتب الذى يسجل نزوات الجسد ومقاذر الغريزة ، وهذا الشاعر الذى يتعمد إيقاظ الشهوة المريضة ، وهذا المخرج الذى يبرز المنظر المثير وقد يكون زائدا فى الفيلم ، وهذه المجلات التى تنشر الصور الآدمية العارية ، وتصف بجانبها مخازى البيوت ومساقط المجتمع ... كل هؤلاء إنما ينشدون الرواج من أقذر طريق ، لأنه أيسر طريق !

وتسألهم فى ذلك فيجيبون بأن الجمهور يريد ، وبأن الرواج دليل على رغبة الجمهور ... ونحن لا نجادل فى أن الجمهور يريد ، فما لا شك فيه أن للناس غرائز حيوانية ، وأنهم يستلذون كل ما يحرك هذه الغرائز ويلبيها ، وأن هناك أناسا مقبوحين منبوذين من المجتمع كل عملهم هو تلبية هذه الغرائز ، وأعمالهم هذه رائجة ورابحة ، ولكن الرواج لا يقوم عذرا لهم أمام السلطات التى تحاربهم وتسد عليهم الطريق . أفيرضى رجال الفن والأدب والصحافة أن تروج أعمالهم على طريقة أولئك المنبوذين من المجتمع الرابحين فى عالم النقود ؟!

إن الرواج ممكن ، ولكن عن طريق آخر — طريق جذب خيط الصعود — فى نفوس الجماهير ، وهذا يكلف مجهودا أشق ولا شك ، ولكنه هو اللائق بكرامة الفن والصحافة ، بل بكرامة الانسان الذى تتهيأ نفسه فى كل لحظة للهبوط أو للصعود حسب الدعوة التى توجه اليه من الداعين . وتلك هى المهارة الصحفية أو الفنية التى تستحق هذا الاسم .

وقد تسألهم فى ذلك فيجيبون بأننا نصور الواقع ، فالرذيلة موجودة فى المجتمع المصرى ، وما يزيد عملنا على كشفها والتنبيه اليها ! ونحن لا نجادل فى أن هناك رذيلة واقعة ، فما لا شك فيه أننا نمر بفترة انحلال خلق ، ولكن إشاعة هذه الرذيلة والتعريف بها لا يقصر أمد هذه الفترة بل يطيل فيه .

والذى يحدث نتيجة لعرض الفضائح العائلية والنزوات الغريزية فى الأدب والصحافة والأفلام والأغانى ؛ هو التمهيد لها فى النفوس ، وتقليل بشاعتها بحكم التكرار ، وإعطاء المثل للواقفين والواقفات على الحافة ، وتسهيل وسائل السقوط والتعريف بها .

خذ مثلا لذلك نشر الصور العارية على البلاج بحجة أنها عارية على البلاج ! إن الذى كان واقعا هو أن مائة امرأة مثلا تراهن ألف عين على الشاطئ ، قبل نشر صورهن ، فأما حين تنشر فإن عشرين ألف عين على الأقل تتطلع الى هذه الأجساد ، وتتحرك غرائزها المخنوقة ، وتسبح فى خيالات اليقظة وهى شر الخيالات !

وذلك فضلا عن الحقيقة النفسية الواقعة ، وهى أن رؤية الجسم العارى على الشاطئ لا تثير من الغرائز ما تثيره الصورة المنشورة فى صحيفة إذ أن الخيال فى الحالة الأولى لا ينشط لأن العين تغنيه عن النشاط أما فى الحالة الثانية فالخيال ينشط ليتصور الواقع ، وفى أثناء هذا النشاط تتحرك أحط نوازع البهيم الكامنة فى كل إنسان !

ومثل هذا الشر وأكثر يقع كلما ارتفعت تأوهات مطربة وشهقاتها فى الراديو ، وهناك آلاف الآذان تتخيل الحركات والأوضاع من وراء الميكروفون ، وأحط من ذلك ما يقع عندما يتمع مطرب ويتدغدغ وهو يرسل بنبرات ونغمات يخجل منها " الرجل " فى كل حال !

و إذا استطعنا أن نغتفر بعض هذا للمطربات والمطربين ، فلن نستطيع أن نغفر لبعض الأقلام الارتكاس الى هذه الحمأة التى يرتكس فيها بعض الكتاب و بعض الشعراء لينالوا الشهرة والرواج . إن بعض الروايات و بعض الدواوين ، صندوق قاذورات غريزية ، ومسيل وحل جنسى ، لا أقل ولا أكثر . وهم يسمونه أدبا وفنا وشعرا بلا خجل ولا حياء !

* * *

ليس على الفن إذن أن يخضع لضرورات العيش وصراع الطبقات ، ولكن ليس له كذلك أن يهبط الى تمليق الغرائز و إثارة الشهوات . وليس الفن متعطلا لا وظيفة له فى الحياة ولكن ليس من وظائفه كذلك أن يرتكس الى مقاذر الحياة !

إن وظيفة الفن الخالدة ، هى الإشعاع ، الإشعاع الذى يكشف عما فى الكون من جمال مشهود ، وعما فى الغيب من جمال موعود ؛ وهى تعميق الحياة وتوسيعها ووصلها بالخلود ؛ وهى الارتفاع عن الضرورات تلبية للرغبة الانسانية فى الانطلاق .

وهو بهذا يحفز الى ترقية الحياة . ترقيتها بالتطلع و بالتسامى و بالتضحية بكل متاع الحياة ، بل بالحياة نفسها عند الاقتضاء .

وليس معنى هذا أن يقوم الفن مقام الوعاظ والخطباء ، فإن له طرائقه ومداخله فى النفوس ، هذه الطرائق التى ليس منها التوجيه المباشر على سنة الوعاظ !

و إن للفن وللصحافة لواجبا مشتركا يؤديه كل منهما على طريقته الخاصة . ولكن لايدخل فى هذه الطريقة تمليق الغرائز وتلبية الرغائب ، فإن هناك خيطا آخر فى النفس الانسانية يؤدى الى النجاح والرواج .

سيد قطب